صور من الحياة :

إنســـــانية تتهاوى !

للاستاذ كامل محمود حبيب

قال لى صاحبى « ما بالك ساهم الفكر مضطرب النفس مقطب الجبين ، يلوح الأسى والعبث فى نظراتك ، وترن نغمات الشجى والهم من خلال كلماتك . وعهدى بك متطلق الوجه مستبشر الخاطر منفرج الأسارير؟ » .

قلت « آه ، يا صاحبى ! لقد عشت منذ الصباح فى غمرات من الألم أراها قاصمة الظهر ، وجهدت أن أدفعها عن خيالى فأدنى أن أفعل ، نطرت إليك علك تخفف عن قلبى بعض ما أثقله حين تراءت له النفوس وقد نضبت من الإنسانية وصفرت من الرجولة » :

قال « هاتها ! »

قلت « هى قصة رجل عصرته الحياة بين فكين فليظين من وطأة العلة وشره المـــال فما أفاق إلا على دوى يؤرق نفسه ويثير همه ... دوى ينذره بأنه أوشك أن يفقد حياته وماله فى وقت معاً .

هو رجل طوى عمر الشباب ينظر إلى الدنيا بعينين فيهمـا فرحة الأمل ولمة الرجاء ، ومن حواليه صبية صغار يرفون رفيفاً حلواً ينفث فى قلبه الهمة والنشـــاط ويبذر فى روحه الهدوء والطمأنينة ، فهو يرى فيهم نوراً يتألق فيبدد ظلمات من العيش تكاثفت أمامه منذ أن مات عنه أبوه وخلفه وحيداً فى خضم الحياة تتقاذفه أمواجها العاتية لا يجد العون ولا الساعد ولا الناصح فراح يتخبط على غير هدى .

وأحست الحياة بوحدة الصبى وضياعه فعبست له وبسرت لا ترحم ولا تشفق ، ولكن شيئاً من ذلك لم يقعد به عن أن يشق طريقه فى أناة وصبر ، ولا عن أن يندفع على سننه فى قوة وعناد ، لا يعبأ بالغلظة ولا يضيق بالجفوة ، حتى أصاب طرفاً من نجاح فأصبح موظفاً صغيراً فى الحكومة وانطوت السنون .

ثم جاءته المحنة الكبرى فأصيب بذات الرئة ، وأحس بالداء يسرى فى دمه فما اضطربت نفسه ولا ضاقت به الحيلة ، وبين يديه ألف جنيه ، ورث البعض وادخر البعض ، فهو يستطيع أن يشترى الطبيب والدواء فى وقت معاً ، فانطلق إلى طبيب من ذوى الصيت والعلم يطب لدائه ، ومن أمامه ألف شعاع من أمل وألف نزوة من كبرياء . ووقف بإزاء الطبيب يحدثه « وأنا — ياسيدى — أدخر ألف جنيه لا أضن بها على من يمسح على دائى فيحبونى بالشفاء ، لأجد فى الصحة متعة صبية صغار يترجون أباهم » وتحاب ريق الطبيب فلبس ثوب الشباب وهو يقول « لا عليك ، فهذا داء قريب البرء عاجل الشفاء » .

واطمأن المريض لكلمات الطبيب . وأمسك الطبيب بالسماعة ليسمع دقات جيب المريض ، ثم أمسك بالقلم ليكتب له الدواء الذى يؤجل الشفاء ويمد فى عمر الداء .

واطمأن المريض إلى العلاج الذى لا يغنى ولا يشفى ، على حين قد عمى عن يد الطبيب وهى تتسلل إلى جيبه فى دهاء ومكر لتستلب ميراث أبيه ووفر عمره . وأحس — بادئ ذى بدء — أن الصحة تسرى فى عروقه وتتألق على صفحة وجهه فاطمأن وهدأت جائشته ، ثم ما لبث أن شعر بالفتور والضعف توشك جميعاً أن تعصف بهمته ونشاطه وشبابه ، فانطلق إلى الطبيب يستعينه على الأمر ويبذل له الوفر ، غير أن الطبيب أمسك بالقلم — مرة أخرى — ليكتب له الدواء الذى يؤجل الشفاء ويمد فى عمر الداء .

وربط المريض حبله بحبل الطبيب الذى أخذ يختله عن صحته وماله ، ووصل سببه بسببه فما ينطوى عنه إلا ريثما يعود إليه ، والطبيب ينظر إليه — فى كل مرة — بعينين فيهمـــا معانى الضراوة والفتك ، يرى مريضه يتهاوى تحت ضربات المرض الجائية فلا ينبض قلبه برحمة ولا تخفق روحه بشفقة ، ثم لا يجد فى نفسه إلا معانى الأرضية الوضيعة تتوثب فى شره تريد أن تفترس أو تلغ فى الدم ، فراح يستلب مال الرجل المسكين لينقض بيت أو تهدم أسرة .

والطبيب فى مهنته منطق يشبه منطق الذئب أمام الشاة :

منطق القتل والسلخ ؛ منطق الجزار يغمد المدية فى نحر البهيمة ليشخب دمها بين يديه نضاراً خالصاً يستحيل إلى دار أو إلى عزبة أو إلى متعة تافهة .

والطبيب — فى رأى الناس — رجل فوق القانون ، لأنه يقتل بشرط من القانون ويسلب بدهاء من القانون ويسرق بحيلة من القانون ويخدع بإذن من القانون .

وهو — فى رأى نفسه — رجل بذل العمر والمال ليتعلم العلم الأرضى الذى يتلهف على المال ويمهد للسادة ويتداعى أمام الجنيه ثم هو — بعد ذلك — يترفع على الفقير والمسكين وذى الحاجة ... العلم الأرضى الذى يقاس بالقرش والجنيه ويقوم بالدرهم والدينار لا تسطع فيه روحانية السماء ولا سمو الروح .

وهو — فى رأى السماء — روح الجنة التى تكشف البلاء ، ويد الله التى تزيح الشقاء ، وبلسم النفس التى تجد العناء .

فيا لشقاء أهل الأرض من طبيب يتعلم العلم الأرضى الذى تلتصق دواعيه — أبداً — بالتراب .

وربط المريض حبله بحبل الطبيب ، وتراخى الطبيب وأهمل ، والمرض يستشرى ويتشبث ، ومضت سنة كاملة ، استحال — من بعدها — الداء الذى كان قريب البرء إلى علة ما لهـــا من دواء . . . إلى السل . وأحس الرجل بالسل يختزم قوته على حين قد نضب معينه وصفرت يده .

وانسابت الحسرة فى قلب الرجل فهو لا يجد المال الذى يدفع به المرض ، ولا يجد الصحة التى يكسب بها المال . وهو يضن بصغاره الأحياء أن يصيبهم المرض الخبيث الذى تغلغل فى رئته ، ويشفق عليهم أن ينالهم عنت الفقر ، فراح ينظر إليهم — من بعد — فى رقة لا تجد متنفساً .

وجلس الرجل — ذات ليلة — إلى زوجته يحدثها حديث الداء العضال الذى كتم عنها خبره منذ أن أصابه ، فانخرطت فى بكاء مر ... بكاء المرأة تحس مرارة الفاقة ولذع العوز وفقد العائل . وتراءى إلى الحكومة خبر المرض الذى يفرى الرجل فقذفت به إلى الشارع .

وانطلق الرجل فى شدة الهم ولأواء الألم . . . انطلق إلى الطبيب يكشف له عن ضنا نفسه وشجو قلبه فأشاح عنه بوجهه وهو يقول فى غير اكتراث « الآن لا متسع لك عن أن تذهب إلى مصحة حلوان » .

لا عجب فقد طرحه الطبيب بعد أن استنزف ماله وامتص وفره ، طرحه لأنه نزل عن إنسانيته ورجولته لقاء دريهمات .

وألقى الرجل السلم عن يد خيفة أن تنتقل العدوى إلى أحبائه : زوجته وأولاده .

ودخل الرجل المصحة حطاماً يئن من عوز ومن ضعف . ووضع طبيب المصحة يده ثم رفعها وقد اربد وجهه وتقطب جبينه وتيقظت إنسانيته ، فجلس إلى المريض الواهى يسأله ليعرف قصة رجل ضيعه طمع طبيب ليس من بنى الإنسان . وأحس الرجل بالبهر والإعياء من طول الحديث فألقى بنفسه على فراش وعلى وجهه سمات الجهد والضنا . ونظر طبيب المصحة فى فيظ وإشفاق ثم قال « آه ، لو أن قانوناً يقول : النفس بالنفس . . . ! » ثم عزم على أن يحيى موات الأمل فى نفس هذا العليل المتداعى ليكون روح صبية صغار يترجون أباهم ، فأصر على أن يستأصل الداء من جذوره رغم أن المريض لا يقوى على وطأة المخدر لضعفه وتهالكه . وأمسك الطبيب الطيب بالمنشار يقد ضلوع المريض وهو يرى ويسمع ويحس ويتألم ولكنه كظم صيحات نفسه فلم ينبس بكلمة .

وخرج المريض من المصحة ، بعد حين ، ليرى ...

قال صاحبى « وخرج المريض من المصحة ، بعد حين ، ليرى الطبيب الذى غاله ماله وأسكبه من صحته وختله عن شبابه ... ليراه ما يزال فى عيادته ذئباً بين شياه ، يستمتع بالأمن والسلام لأنه فوق القانون ، يقتل بشرط من القانون ويسلب بدهاء من القانون ويسرق بحيلة من القانون ويخدع بإذن من القانون . . . ! »

فاضل محمود حبيب